وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بابل
كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم التاريخ

داود باشا والي بغداد(١٨١٧ -١٨٣١ م)

بحث تقدمت به الطالبة

تبارك علاء عبد الحسين

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل كجزء من متطلبات الحصول على شهادة البكالوريوس في التاريخ

بأشراف الدكتور

فؤاد طارق

١٤٤٥ه _ ٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

صدق الله العلي العظيم

سورة القصص :اية (١٤)

أ

الإهداء

قال تعالى "أنما يخشى الله من عباده العلماء" إلهي أهدي لك تفوقي فلك الحمد والشكر على رحمتك ونعمتك العظيمة التي رزقتني بها وجعلتني من أهل العلم والمعرفة فأكرمني بنشر هذا العلم إلى الاجيال القادمة كأساتذتي الأفاضل...

لله جل جلاله...

إلى من بلغ الرسالة الإسلامية ونصح الأمة إلى نبي الرحمة ونور العالمين.

سيدنا محمد "صلى الله عليه وآله وسلم '

الشكر والتقدير

كن عالما...فأن لم تستطيع فكن معلما...

فأن لم تستطيع فأحب العلماء، فأن لم تستطيع

فلا تبغضهم...

وأخص بالشكر والتقدير

والداي اللذان علماني السلوك القويم،وأنارا حياتي

بقبسات الهداية وعلماني آيضا الصبرهو طريق

النجاح كما أخص بالشكر خالتي العزيزة التي كانت

بمثابة الكآس الذي آرتوي منه قوتي وسعادتي...

ج

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
الآية القرآنية	أ
الاهداء	ب
الشكر والتقدير	ج
قائمة المحتويات	د
المقدمة	١
الفصل الاول :لمحة تاريخية عن أوضاع العراق قبيل تولي داود باشا الحكم عام ١٨١٧_١٨٣١. المبحث الأول: الوضع السياسي	٢-٥
المبحث الثاني: الوضع العسكري	٥-١٠
الفصل الثاني: داود باشا حياته واعتلاء الحكم في بغداد عام ١٨١٧.	١١-١٥
المبحث الأول: حياته ونشأته.	١١-١٣
المبحث الثاني: أبرز المناصب التي تولاها قبل تولي الحكم.	١٤-١٥
الفصل الثالث : انجازات داود باشا في العراق ١٨١٧_١٨٣١ ونهاية حكمه.	١٦-٢٦
المبحث الأول: الجانب السياسي والعسكري .	١٦-١٩
المبحث الثاني: الجانب الاقتصادي.	٢٠-٢٢
المبحث الثالث: الجانب الثقافي.	٢٣
المبحث الرابع: نهاية حكمه وسقوط المماليك.	٢٤-٢٦
الخاتمة	٢٧
قائمة المصادر	٢٨

المقدمة

عدت مرحلة حكم داود باشا على العراق ١٨١٧_١٨٣١ من أهم المراحل في تاريخ العراق قياسا بالولاة الذين سبقوه ،فضلا عن إنجازاته الحضارية الكثيرة التي شهدها العراق خلال حكمه.

وقد جاءت أهمية مدة حكمه نظرا للأحداث السياسية المهمة و البارزة الكثيرة التي شهدها العراق خلال حكمه فالإصلاحات التي قام بها داود باشا في المجالات الإدارية والاقتصادية والعسكرية وأن آثار حكمه ضلت ماثله للعيان في البلاد ومنها المساجد التي لا تزال شاخصه للعيان لهذا فقط جاءت الدراسة لتسليط الضوء على أهم المعالم الفكرية التي سادت عصر الوالي داود باشا من بناء الجوامع والمدارس إلى الاهتمام بالأدباء والشعراء وعلماء الدين فضلا عن توسع علاقاته الخارجية مع بعض البلدان المجاورة للعراق ومع بريطانيا أيضا.

جاءت الدراسة بأربعة فصول تطرق الفصل الأول إلى أوضاع العراق قبيل تولي داود باشا الحكم، وقد جاء في المبحث الأول الوضع السياسي وفي المبحث الثاني الوضع العسكري.

وتطرق الفصل الثاني إلى نشأة داود باشا وقد جاء في المبحث الأول حياته ونشأته وفي المبحث الثاني أبرز المناصب التي تولاها قبل تولي الحكم.

وتطرق الفصل الثالث إلى إنجازات داود باشا في العراق(١٨١٧_١٨٣١) ونهاية حكمه جاء في المبحث الأول الجانب السياسي والعسكري وفي المبحث الثاني الجانب الاقتصادي وفي المبحث الثالث الجانب الثقافي وفي المبحث الرابع نهاية حكم داود باشا عام ١٨٣١ وسقوط المماليك. اعتمدت الدراسة على عدد من المصادر والمراجع منها يوسف عز الدين في كتابه داود باشا ونهاية المماليك في العراق ،وعباس العزاوي في موسوعته تاريخ العراق بين الاحتلالين ،وعبد العزيز سليمان نوار في كتابه داود باشا والي بغداد.

الفصل الاول

لمحة تاريخية عن أوضاع العراق قبيل تولي داود باشا الحكم (١٨١٧_١٨٣١)

المبحث الأول: الوضع السياسي

المبحث الثاني: الوضع العسكري

المبحث الأول : الوضع السياسي

كان العراق جزاء من الإمبراطورية العثمانية المترامية الاطراف والتي كانت قد قسمت إلى عدة ولايات يحكم كلا منها وآل يعين من الاستانة بفرمان يصدره السطان وقد كان أكثري الصلاة مطلقين التصرف بأدارة شؤون الولايات فالوالي هو الرأس الأعلى للولاية يديرها حسب رأيه، ويهيمن على كل قضاياها وله صلاحيات داخل حدود الولاية تكاد لا تحد فهو يأمر بالسجن والموت ويسوق الجيوش لاخماد الثائرين. فإذا كان الوالي صالحا_ وما أقل الصالح صلحت البلاد وان كان فاسدا_وهو الأكثر _انتشر الفساد والفوضى والاضطراب ولم يكن الوالي يستشير الاستانة إلا في أخطر الأمور(١).

وقد تمتد ولاية العراق_أو بغداد _من البصرة حتى الجزيرة وقد تصغر فتشمل بغداد وحدها (٢).

وقد كان تفسخ ولاية العراق جزءا من تفسخ عام شمل الإمبراطورية العثمانية حتى غدت الولايات تباع كما تباع وظائف الدولة الأخرى. فكان الوالي يستوفي الضرائب ويغتصب الأموال من القبائل والمدن على حد سواء بل أن أحد الولاة الأتراك أخذ يتباهى بأن ميزانية ولايته ليس فيها صفحة للمصروفات لأنها_أي الميزانية_كانت تقتصر على الواردات فقط. وكان على الوالي ان يحافظ على منصبه ما دام فيه بأن يحدد الهدايا على صورة من الصور،للصدر الأعظم المنتظر للهدايا من الولاة وقد يعزل الوالي واليا لا يرتاح إليه متى دفع مبلغا من المال للاستانة (٣).

ولما كانت قوة المماليك قد توطدت خلال حكم سليمان او ليلة وكثر عددهم ولم يكن في الباب العالي إلا أن يسند الباشوية _ بعد ابو ليلة إلى شخصية مملوكية معروفة لديه ،لايجمع عليها المماليك وأولو الرأي من علماء وأعيان بغداد لذلك أسندت حكومة بغداد إلى علي باشا الذي تعاون مع شركة الهند البريطانية على ضرب اسطول كعب (٤).

١_ يوسف عز الدين، داود باشا ونهاية المماليك في العراق، منشورات دار البصري، بغداد ،١٩٦٧،ص ٥.
٢_المصدر نفسه ،ص ٦.
٣ _ يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص ٦_١٠.
٤_عباس العزاوي، تاريخ العراق بين الاحتلالين، ج ٦،مطبعة بغداد ، بغداد ،١٩٥٤، ص٣٢.

ولكن لم تغفر له عادلة هانم _زوجة ابو ليلة وذات النفوذ الواسع خلال حكم زوجها اغفاله لنفوذها، فاستغلت كراهية البغدادين للفرس و لمذهبهم، وأثارت عليه حقد المماليك الطموحين، وأطلقت في العاصمة العراقية شائعات رددت أنه كان خفيف الوطأة على الخزاعل الشيعة شديدا على الانكشارية والكرد السنين [١].

كان من الطبيعي أن يبرر مطالبه بالباشوية يدعى انقاذها من الوقوع في يد بكر صوباشي جديد وتزعم الثورة عمر بك أحد كيخيات سليمان ابو ليلة ،وقضى على خصمه واعتذر للباب العالي بعدم عرض قضية الباشا (الفارسي) عليه خشية وقوع العراق في يد إيران قبل ورود أمر السلطان وأيدت الاعتذار كتب الأعيان والتماسات الأهالي فأسندت إليه الباشوية ١١٧٧ه_١٧٦٤م [٢].

ان انتصار المماليك في تعين عمر باشا وشعورهم بقوتهم جعلهم يعملون على تقليد آراء المماليك في مصر. فقد اجتهدوا في السيطرة على الجهاز الإداري والعسكري لباشوية بغداد وفي تقوية آواصر الترابط فيما بينهم بمصاهرة ذوي الشكيمة وترقية الاصهار إلى منصب الكتخدائية ، وهو المنصب الممهد للحصول على منصب الباشوية وعلى هذا النمط سار المماليك فعلا حتى داود باشا. حكم عمر العراق بقوة ونشر الأمن والاستقرار في وقت كانت الكوارث فيه تتوالى على الدولة العثمانية في ختام حربها مع روسيا التي انتهت بإذلال كوجك كينارجي ، حتى أن بغداد أصبحت تحت حكم عمر باشا جديرة بأن تسمى "دار السلام " لما شملها من هدوء وطمأنينة .ولكن الجزء الأخير من حكم عمر باشا كان مضطربا كل الاضطراب فقد أجتاح الطاعون العراق (١١٨٦ه_١٧٧٢م) وقضى على قادة البلاد ومن تمرس في إدارتها لهذا خلت بغداد من وآل بعد خروج حسن باشا منها فأرسل سليمان الاتماسات إلى السلطان مطالبا بالولاية لنفسه واستعان بصديقه لاتوش المقيم البريطاني في البصرة لتزكيه طلبه فحصل على غرضه أيضا لما له من ماض مشرف [٣].

١-عباس العزاوي ،المصدر السابق ، ص ٣٣.

٢_عبد العزيز سليمان نوار،داود باشا والي بغداد، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر،القاهرة،١٩٦٨،ص٢٩.

٣_عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص ٣٠.

استهدف سليمان باشا أولا وقبل كل شيء توطيد الأمن في البلاد بإيران كانت في شغل شاغل عن أمور العراق بسبب ذلك الصراع العنيف بين المطالبين بالعرش وكان السلطان راضيا عن سليمان فوجه ضربته إلى الطامعين في منصب الباشوية ثم زحف على جناح السرعة بخيالة الكرد على العصابات المتمردة فتشتت شملها .ورث سليمان عن اسلافه المشكلة العشائرية و واجهها في أعنف أدوارها وما كان السبب في تضخم هذا المشكلة وإنما كانت السياسات التي انتهجها أسلافه لا تضمن خضوع عشيرة الا إذا كان السيف المملوكي مسلطا عليها ثم جاءت فتره ضاعت خلالها هيبة الحكومة أمام انتصارات الفرس وضعف الولاة فكانت فرص تمرد العشائر مواتيه فأمتنعت العشائر عن دفع الاموال المفروضة عليها وكانت مجهوداته الجباره في سبيل تثبيت قدم المماليك في العراق هي التي جعلت حكمهم يمتد حتى عهد داود باشا الزاهر. وكان من خطته أن يملأ المناصب بهم وأن يكونوا قوة في العراق فأشترى اعدادا منهم وكان من بينهم داود [1].

١-عبد العزيز سليمان نوار ،المصدر السابق،ص ٣٤

المبحث الثاني: الوضع العسكري

يعد حسن باشا (١٧٠٤_١٧٢٣) أول من جلب المماليك إلى العراق و أعتنى بهم، وقد اشترى حسن باشا منهم إعداد كبيرة ورباهم تربية خاصة تعدهم لحياة أدارة وعسكرية سليمة،وكون منهم فرق عسكرية كما أن أبنه أحمد (١٧٢٣_١٧٤٧) سار على منواله .تزايد عدد المماليك في عهدي حسن باشا وابنه أحمد وانتشروا في المدن العراقية فضلا عن العاصمة بغداد [١].

أدت الحروب ومشكلات العراق العشائرية وتمردات الانكشارية إلى أن يعني حسن باشا وابنه احمد باشا بتكوين قوة جديدة لتكون الأداة المنفذه بإخلاص لاوامر الباشا هي القوات المحلية التي كانت تؤلف الحرس الخاص للباشا وهذه يجمعها الباشا ويدفع لها الرواتب المنتظمة، وكان يعتمد على قوات عشائريه كلفت بالخدمة العسكرية مثل عشيرة البيات ولم يكن امام حسن باشا ليكون جيشا مخلصا يحقق به أهدافه في إيران وبغداد والبصرة سوى أحد الطريقتين :

١_إما أن يعتمد على العشائر العربية والكردية .

٢_او يستخدم قوه مرتزقة من غير العراقين [٢].

١_كريم مطر حمزة،الحله في عهد المماليك ١٧٤٩_١٨٣١،مؤسسة ثائر العصامي،بغداد، ٢٠١٨،ص ٢٤.

٢_عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص ص٢٣_٢٤.

أنشأ حسن باشا للمماليك مدارس وحدد لها نظام الدراسة ولم يقتصر على تعليم المماليك في هذا المدارس، بل ألحق بهذه المدارس كثيرآ من أبناء الأسر الكريمة.كان نظام الدراسة يسير حسب ترتيب دقيق، كانت تلك المدارس جديرة بأن تخرج قادة السيف والقلم في العراق ومن تولى النهوض بالحركة العلمية والعسكرية فيها (١).

قاد حسن باشا جيشا للقضاء على حركة عشائر الخزاعل وشيخهم سلمان عباس الخزعلي ،وكان سبب في انتفاضة العشائر في مناطق الفرات الأوسط الضرائب التي فرضتها حكومة بغداد عليهم ،فضلا عن طموح الخزاعل وشيوخهم السيطرة على بغداد وكانت الخزاعل قليلة العدد الا أنها اكتسبت الشهرة الكافية وانقادت لها العشائر حتى أصبح رئيسها يدعي الاماره على العرب وصاهر عشائر كثيرة فتجمعت له إعراب الباديه والتفت حوله (٢).

تعتبر مشكلة القبائل إحدى المشاكل الرئيسية المعقدة التي واجهت نظام المماليك في كل من بغداد والبصرة وشهرزور وما يتبعها من مدن أن هذه المشكلة لم يجد لها الولاة السابقون أي حل جدي طيلة قرن من الزمان أو أكثر بلغت من السوء والتعقد حدا كبيرا بسبب موقف الولاة المتردد اتجاهها ويعتمد هذا الموقف على أمرين :

١_ الحاجة الماسة إلى قوى القبائل عند ظهور أي خطر إيراني يهدد بسيادة البلاد واعتبارها من قوى الحدود التي يمكن أن تدفع الأخطار عن الدولة العثمانية.

٢_ضروره قمع هذه القبائل وضربها اذا ما تخطت الدور المرسوم لها بقطعها الطرق التجارية، أو بغرض سيطرتها على المدن أو بعصيانها أوامر الولاة كان أمام اي والي عثماني يتسلم مقاليد الحكم في بغداد أن يوازن بين عاملين مهمين فيتناول الاستفادة قدر الأمكان من قوى القبائل ويسعى إلى تقليد قوى هذه القبائل في الوقت نفسه (٣).

١_ عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص ص٢٤_٢٥.

٢_كريم مطر حمزة، المصدر السابق، ص ٢٥.

٣_عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية في العراق ابان عهد المماليك ١٧٤٩_١٨٣١، أطروحة دكتوراه غير منشوره، جامعة القاهرة، ١٩٧٦،ص ص ٢١٥_٢١٦.

فكان لابد من وضع حد للقوى القبلية في العراق وكان على المماليك أن يتولوا هذه المهمه .أن تأسيس نظام المماليك نفسه هو في حد ذاته محاولة لخلق جيش مدني منظم يقلل من خطر الاعتماد على القبائل. وكان حسم باشا والي بغداد ومؤسس نظام المماليك، قد رسم في عهده الطويل سياسة خاصة متميزة تجاه القبائل سار عليها ولاة المماليك من بعده تعمل هذه السياسة على التخفيف من ثقل القبائل في رسم السياسة العامة للبلاد وذلك بالاقلال من الإعتماد عليهم في الأمور العسكرية أن حكومة المماليك لم تستطيع الاستغناء عن قوى القبائل في كل حمله كبيرة تعدها الا أن هذا الاعتماد كان يقل تدريجيا بمرور الزمن حتى أصبحت القبائل في أواخر عهد المماليك لا تمثل الا وسيطا احتياطيا إلى جانب القوه الرئيسية التي تشكلها قوات المماليك والبنكجرية والجنود المحليون من سكان المدن ذاتها [١].

حاول حسن باشا منذ تسليمه مقاليد السلطة في بغداد أن يجد من نفوذ القبائل وتأثيرها على الحياة المدنية في الولايات العراقية أستعمل معها اسلوب القوة لاخضاعها وكبح جناحها فقام بسلسلة من الحملات الناجحة الموفقة عليها بدأها بحملة على قبيلة شمر التي بدأت تتوافد على العراق [٢].

قام حسن باشا بحملات تأديبية بهدف فتح الطرق التجارية بين المدن العراقية، وفي عام ١٧٠٧ قضى حسن باشا على تحالف قبلي بين زيد وعشائر أخرى، بعضها من شمر فأنتصر على الأولى وعفى عن الأخيرة اتخرج سياسة أحمد باشا تجاه القبائل عن سياسة أبيه أذ تسجل فترة حكمه الممتدده من ١٧٢٣_١٧٤٨ سلسلة من الإجراءات القوية في هذا السبيل فقد افتتح حكمه سنه ١٧٢٤م بقمع ثورة قام بها بنو جميل وانه تعمد أن تكون لأعماله هذه صيتا حسنا لدى القبائل الأخرى فعفى عن رؤساء الأولين واكتفى بعزل شيخ شمر وتحديد مراعيه كانت أغلب حملاته موجهه ضد بني لام الذين تكررت ثوراتها في السنوات ١٧٣٧_١٧٤٥ ثم على المنتفق وربيعة وقشعم [٣].

١_عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٢١٨_٢٢٠.

٢_عبد الرحمن السويدي ،حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، ج١،مطبعة الزعيم ،بغداد، ١٩٦٢،ص ١٩.

٣_عماد عبد السلام رؤوف، المصدر السابق، ص٢٢١_٢٢٢.

تولى عمر باشا الحكم في ربيع ١٧٦٤ وشهد عهده احداثا جساما كان اولها ثورات عشائر الخزاعل والمنتفك والعبيد، ثم الطاعون الذي وفد من إسطنبول إلى مدن العراق وداهم بغداد عام ١٧٧٢ وأخذ يسير إلى سائر أنحاء العراق ،قضى على نخبة ممتازه من ذوي الخبرة وقاده الرأي وحل محلهم مجاميع من العرب والاكراد من الذين لا خبره لهم ولا دراية مما زاد الوضع سؤا .تمكن الإيرانيون من فرض حصار على البصرة عام ١٧٧٥الامر الذي جعل السلطان يتلفت إلى العراق وقد كان الاعتقاد في الاستانه في بداية الأمر أن السبب الأكبر في هذا النزاع مع إيران هو عمر باشا لذا فأن ابعاده قد يهدأ الحالة في كردستان والبصرة وكان قد ورد للدولة العثمانية اتهامه بالتعرض للزوار الإيرانيين ومما عزز هذا الاعتقاد إرسال كريم خان الزند سفيرا إلى السلطان يشكو مم سياسة عمر باشا [١].

استمرت الفوضى في المدن العراقية مدة ثماني عشرة سنة (١٧٦٢_١٧٨٠) دون أن يتمكن أحد من الولاة العثمانين المتعاقبين في بغداد على إعادة الأمن والاستقرار إلى عموم العراق، وقد افرز حصار البصرة صمودها بوجه الفرس قائدا شجاعا اتسم بجميع صفات القيادة وهو سليمان باشا. مما شجع السلطان العثماني عبد الحميد الاول (١٧٧٤_١٧٨٩) على إسناد منصب ولاية بغداد له في سنة (١٧٨٠) [٢].

لقد شهد عهد سليمان باشا علاقات جيدة مع العشائر في بداية حكمه الا أنها سرعان ما ساءت إلى درجة شهد عهده انتفاضة عشائرية تميزت بأتساعها وعمقها ونتائجها ،اندلعت في الفرات الأوسط عام ١٧٨٧ تزعمها سليمان الشاوي شيخ العبيد وثويني العبد الله شيخ مشايخ المنتفك وحمد الحمود شيخ الخزاعل، واستهدفت القضاء على حكم المماليك وقد تمكن الثوار من فرض سيطرتهم على البصرة، وتولى حكمها الشيخ ثويني العبدالله وهرب متسلمها المملوكي ابراهيم بك إلى مسقط [٣].

١_ايناس سعدي عبدالله، تاريخ العراق الحديث ١٢٥٨_١٩١٨،دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد ،٢٠١٤،ص ٣٤٣.

٢_علي طالب عبيد عاصي، الحلة في القرن الثامن عشر دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والفكرة، رساله ماجستير غير منشوره ،

كلية التربية جامعة بابل ،٢٠٠٩،ص ٥٢.

٣_ايناس سعدي عبدالله، المصدر السابق، ص ص ٣٤٨_٣٤٩.

ظلت البصرة تحت حكم الشيوخ العرب بضعة أشهر ولم تخرج عن هذا الحكم الا بعد أن حشد المماليك قوات كبيرة لمواجهتها ودارت معركة رهيبة في مكان يدعى ام الحنطة قرب البصرة انتهت بعودة الهيمنة المملوكية على المدينة أن المقدره التي تمتع بها باشا بغداد في معالجة المشاكل وفي قيادة الحملات وتحقيق الانتصارات كان لها الصدى الحسن لدى الباب العالي ،أذ كسب بها اعتماد السلطان وثقته به حتى كلفه في عام ١٧٩٠ بمحاربة الأكراد الماليين بزعامة تيمور الملي تمكن الباشا من انزال الهزيمة بهم وفي طريق عودته إلى بغداد عرج نحو المتمردين من اليزيدية فأعدم زعمائهم وحز رؤوسهم وإرسالها إلى الاستانة [١].

تعرضت مدينه الحلة سنة ١٧٩٩ إلى هجمات قبائل غزه التي كانت تقطن بالأساس باديه سوريا الا أنها كانت تجتاز بأستمرار الأراضي العراقية أمر الوالي سليمان باشا بتجهيز قوة عسكرية والتصدي لتلك القبائل وإيقاف خطرهم وكانت تلك القوة بقيادة كتخداه علي باشا وما أن سمعت عنزه باستعدادات الوالي العسكرية ولقناعة شيوخها باستحالة محاربة قواته فقد أثرت الصلح معه فأتجه احد شيوخها إلى بغداد وتصالح مع حكومتنا بشرط ارجاع ما نهبوه من الحبوب الزراعية خلال عشرة أيام [٢].

١_ايناس سعدي عبدالله ،المصدر السابق، ص ٣٤٨.

٢_علي طالب عبيد عاصي ،المصدر السابق، ص ٥٤.

الفصل الثاني

داود باشا حياته واعتلاء الحكم في بغداد عام (١٨١٧)

المبحث الأول _ حياته ونشأته .

المبحث الثاني _ أبرز المناصب التي تولاها قبل تولي الحكم .

المبحث الأول_ حياته ونشأته

ولد داود باشا في مدينة تبليسي في جورجيا سنة ١٧٦٧م [١] .كان داود من أسرة كرجية مسيحية في تفليس من آب يدعى على الأرجح بطرس [٢].

اختطف من اهله عندما كان في سن الثالثة عشر فجاء به احد النحاسين إلى بغداد وعرضه للبيع فأشتراه احد وجهاء بغداد وهو مصطفى بك الربيعي غير انه باعه بعد أيام وصار بعدها ينتقل من شخص لآخر انتهى به المطاف إلى يد الوالي سليمان الكبير. وادخله في زمرة مماليكه واخضعه للتدريب الذي كان يخضع له سائر المماليك في تلك الأيام تدرج داود في المناصب الإدارية في عهد الوالي سليمان باشا حيث رفع إلى منصب المهردار اي حامل الختم [٣].

كان داود حسن الصورة يتميز بالذكاء مولعا بالعلوم تلقى العلم على كبار علماء الزوراء ، فمهر في الآداب العربية والتركية والفارسية وفي الرياضيات وظهر حذقه في الأمور السياسية والإدارية والحق بحرس سليمان الكبير [٤].

عرف داود باشا الحياة وتمرس بأفاتها صغيرا وتعلم ما لم يتعلمه أمثاله من الشباب وقد اخذ سيد البلاد يعني به العناية الطيبة ويوجه التوجيه الكريم ولا يدخر وسعا في تعليمه وتثقيفه[٥].

١_علي الوردي ،لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج١،ط٢،دار الراشد،بيروت ،٢٠٠٥،ص ٢٣٧.

٢_عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص ٤٢ .

٣_علي الوردي ، المصدر السابق، ٢٣٨.

٤_ عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص٤٣.

٥_ يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص ٢٥.

تعلم القراءة والكتابة والفنون العسكرية على يد مجموعة من مشايخ بغداد وعلمائها منهم محمد أمين الموصلي وهو من شيوخ القراء الذي نبغ في التجويد والقراءات، وكان اول لقاء بين داود باشا ومحمد أمين في عهد سليمان باشا الكبير عندما كان الاول مهردار ولاية بغداد، وألف كتابا في الأداء والتجويد وقد وصفه عثمان بن سند في مطالع السعود انه على الرغم من سماحته لا يسلم أحدا من لسانه لاسيما من اتصف بالعلم إذ انه شديد الإسراع إلى الطعن به [١].

ومن مشايخ داود باشا أيضا الملا حسن بن محمد علي الزوزوجي الذي كان عالما في النحو والصرف ،وسكن بغداد ثم سافر إلى البصرة مع سليم باشا في عهد سليمان باشا الكبير عندما تسلم الأول متسلمية البصرة ،وقد أصبحت له في البصرة مكانه مهمة على الرغم من تعصبه اتجاه أهلها. أما احمد الحافظ فقد عد من علماء بغداد المشهورين في بداية القرن التاسع عشر الذين درس على يدهم داود باشا[٢].

أجاد القرآن الكريم أجاده تامة وحفظ من آياته البينات ثم ألم بالتصوف ودرس البيان والبديع وعلم التفسير وكل العلوم التي كانت تدرس أنذاك للطلاب ثم أجاد اللغتين الفارسية والتركية فقد كان آديبا باللغات الثلاث كل هذا وسيده يرقبه عن كثب ويعجب به أشد الإعجاب فازدادت ثقة سليمان الكبير به وحرصه على راحته هذه الثقة جعلت من داود باشا امينا لمفاتيح الوالي ثم حاملا لاختامه [٣].

بعدها تزوج داود باشا إحدى بنات الوالي سليمان باشا [٤].

١_عثمان بن سند البصري ،مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المطبعة السلفية ،القاهرة، ١٣٧١،ص ١٧١.

٢_المصدر نفسه، ص ١٧٢.

٣_يوسف عز الدين، المصدر السابق، ص ٢٥.

٤_احمد علي الصوفي ،المماليك في العراق، مطابع الاتحادية، الموصل، ١٨٥٢،ص ١٩١.

المبحث الثاني : أبرز المناصب التي تولاها قبل تولي الحكم

أظهر اقتدارا كبيرا في ممارسة أمور الدولة الرسمية [١] ، عمل في البداية حارسا لسليمان[٢].

ثم كاتبا خاصا واميناً للمفاتيح وحامل الاختام من بعد ذلك .وأخذ يتقدم شيئآ فشيئا ويعلم قدره وترتفع في النفوس منزلته وتقلد وظيفة الخزنة الدار وهي من أرقى المناصب وأصبح صهرا لسليمان الكبير . فقد كان من سياسة سليمان الكبير أن يسند المناصب الكبرى لاصهاره وفي عهد علي باشا عزل داود من وظائفه، ونفي إلى السليمانية بوشاية المغرضين، ثم أذن له بالعودة والإقامة الإجباريه في داره ، ثم تقلد منصب الدفتردار عدة مرات في عهد سليمان باشا الصغير ،وكذلك في عهد عبدالله التوتنجي، وكهية ثم دفتر دار في عهد سعيد .وخلال ذلك كان داود يواصل الدرس والتعلم حتى بلغ في العلوم منزله تفوق بها على غيره [٢].

ان انضمام داود إلى سعيد هو اعتراف بجميل سليمان الكبير عليه، زد على ذلك علاقة المصاهرة، وقد يكون من الدوافع إنه رأى في إنضمامه الى سعيد فرصة للحصول على منصب أرقى من المنصب الذي يشغله،ذلك لانه بقي طوال حكم عبدالله ١٨١٠_١٨١٣ في منصب الدفترداراية دون أن يرقى ، ويبدو أن انضمام داود باشا إلى سعيد كان من العوامل القوية التي شجعت المماليك على أن يتخلوا عن عبد الله [٤].

فقد كان داود في ذلك الوقت مشهورا بأنه مدير وصاحب رأي سدسد . عمت الفوضى مناطق الفرات الأوسط، ومنها الحله إذ انتفضت عشائر الجزيرة والشامية ضد حكومة سالكين طريق عشائر زبيد والخزاعل، وتبعتهم العشائر النجدية الجربا والضفير والدولة واقتربت هذه العشائر شيئآ فشيئا من المدن العراقية كالنجف وكربلاء والحلة[٥].

١_ستيفن همسلي لونكريك، أربعه قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ،

١٩٤٩،ص ٢٢٦.

٢_عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص ٢٢٦.

٣_كريم مطر حمزة، المصدر السابق، ص ٦٦.

٤_عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق، ص ٥٣ .

٥_كريم مطر حمزة، المصدر السابق،ص ٦٧.

إن داود من الرجال الاكفاء استطاع أن يضرب العشائر المتمردة ضربات قوية مزق بها شملهم وانقذ الزوار في كربلاء ثم ارسل من يحرسهم في سفرهم الى النجف وفي عودتهم إلى الكاظمية فأيران [١].

وبعد إكمال هذه المهمة سافر إلى الديوانية وعرج في طريقه إلى عشيرة زبيد وعزل شيخها لاخلاله بالأمن.

استقر جيش داود في الديوانية ليتفرغ لعشائر الخزاعل التي امتنعت عن دفع الضرائب منذ عهد علي باشا لكن الخزاعل انتابهم الخوف من شدة داود فجاء شيوخهم ومنهم محسن الغانم إلى معسكر داود معلنين الطاعة ودفعوا جزءا من الضرائب التي بذمتهم مما أدى بداود العفو عنهم ،والعودة بجيشه إلى بغداد[٢].

رغم النجاحات التي حققها داود التي انتشرت أخبارها في كل البلاد المجاورة الا أنه علاقه داود وسعيد لم تستمر على ما يرام ثم انقطعت تماما في نهاية المطاف ويرد لنا المؤرخ سليمان فائق قصة عزل داود من مناصبه إذ أن سعيد كان ضعيفا أمام إرادة أمه التي أصرت على عزله وذهبت محاولاته في الدفاع عن حسن اختياره داود لمنصب الكهيه او الدفترداريه أدراج الرياح وكانت الام لا تفهم النتائج السياسية المترتبة على عزل داود فقد كان في نظر سعيد أفضل من غيره ولما كان داود صهر الباشا استغل سعيد هذه العلاقة لاقناع الأم لكن تحطمت محاولاته [٣].

وشاية المغرضين أبعدوا سعيدا عن داود بتلفيق الاخبار عن طمع داود بالسلطة مما أدى إلى اتخاذ إجراءات ضد داود الذي هرب إلى السليمانية طلبا للحماية [٤].

١_علي الوردي، المصدر السابق،ج١،ص ٢٥.

٢_كريم مطر حمزة، المصدر السابق،ص ٦٧.

٣_كريم مطر حمزة، المصدر السابق،ص ٦٨.

٤_سليمان فائق بك، تاريخ بغداد، ترجمة موسى كاظم نورس، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٢،ص ١١٧.

الفصل الثالث

أنجازات داود باشا في العراق (١٨١٧_١٨٣١)

المبحث الأول: الجانب السياسي والعسكري .

المبحث الثاني: الجانب الاقتصادي .

المبحث الثالث: الجانب الثقافي.

المبحث الرابع: نهاية حكم داود باشا وسقوط المماليك.

المبحث الأول: الجانب السياسي والعسكري

داود باشا (١٨١٧_١٨٣١) وهو اخر الولاة المماليك في العراق وتميز عهده بمتغيرات سياسية كبيرة كان من أبرزها بدء حركة الاصلاحات في العراق لقد واجه داود خلال تولية الحكم ما كان قد واجهه غيره من الولاة من ثورات عشائريه عربيه ومطالبين بالحكم واضطراب الامور في كردستان وهذا مما ترتب عليه الكثير من تدخلات إيرانية عسكرية حتى بلغ الأمر ام زحف الشاه زاده محمد علي ميرزا على بغداد وقد تمكن داود في بداية حكمه من اخضاع العشائر الثائرة كعشائر بني تميم والنجاده من الدفافعه وبني عمير،بتوجيه الحملات عليها سواء تلك التي تولى قيادتها بعض ضباطه او التي اضطلع بها كتخدا محمد اغا ضد عشائر الدليم وشمر الجربا وشمر طوقه ولكن هذه الإجراءات لم تجد نفعا، إذ سرعان ما تفاقمت عليه الأمور واحاطت به الأخطار من كل جانب ،فالجيوش إيران اخذت تتحرك نحو العراق وصادق بك اخو الوالي السابق راح يحاول ان ينتهز الفرصة ويعلن العصيان والتمرد ثم تمكن من الفرار ليلا من بغداد (١٨١٨)والتجأ إلى شفلح الشلال شيخ زبيد فأواه والتزم بجانبه وقد أراد صادق ان يفعل مثلما فعل اخوه سعيد عندما التجأ إلى شيخ المنتفك، فنال كرسي الباشوية بمعونته، ثم ما لبث ان أنضم إليه جاسم بك الشاوي وراح هؤلاء يجمعون العشائر ويحرضونها على القيام بالثورة ضد الحكومة وكانت باكورة اعمالهم ان أخذوا يشنون الغارات على القرى والمدن ويقطعون الطرق ولاسيما الطريق النهري بين بغداد والبصرة. وقد اضطر هؤلاء داود بأعمالهم إلى إيقاف الحملة المنوي ارسالها بقيادة كتخداه محمد اغا إلى كركوك لصد القوات الإيرانية المرسلة لمعاونة محمود الباباني وتوجيهها نحو هذه العشائر الثائرة إذ خشي أن تتكرر حوادث عام ١٨١٣في عهده فتؤدي إلى

دخول ابن اخر من أبناء سليمان الكبير إلى بغداد على اكتاف العشائر العربية الثائرة غير ان داود سرعان ما علم ان الشاه زاده نفسه قد تحرك من كرمنشاه نحو العراق، الأمر الذي جعله يدرك خطورة الموقف ويتهيأ للتحرك بنفسه لمقابلته فأوقف زحف جيش كتخذا نحو جبهة الجنوب ليتولى قيادته ضد الشاه زاده وفي الوقت نفسه لجأ إلى الطرق الدبلوماسية للقضاء على عصيان صادق بك ومن معه وذلك بأن سلط على شيخ شفلح الشلال اثنين من خصومه من الذين ينافسونه على المشيخة وهما علي البندر وشبيب الدرويش [١].

١_ ايناس سعدي عبدالله، المصدر السابق، ص ٣٥٦.

ثم أصدر أمره بعزل شفلح وتعين علي البندر مكانه وسلح داود خصوم شفلح و اعانهم بمقدار من القوات العربية الموالية، وقد راح الاثنان يعملان على تفريق العشائر الثائرة حتى تقابل الفريقان في مكان يقال له ختيخشه فتشتت شمل هذه العشائر وانهزم شفلح الشلال وصادق بك وجاسم بك الشاوي نحو جهات عفك والتجأوا إلى شيوخها وتحصنوا بالاهوار .وقد بقي الأمن مضطربا في منطقة الفرات الأوسط عدة أشهر حتى استطاع داود باشا بعد أن أتم تسوية الأمور مع إيران ان يبعث بقواته إلى الاهوار فضيقت الخناق على صادق بك واتباعه ولم تمض سوى أيام معدوده حتى قدم الشيخ شفلح طلبا إلى داود يتعهد فيه بالتخلي عن صادق بك وجاسم الشاوي مقابل العفو عنه واعادته إلى مشيخته فوافق داود على ذلك وارسل إليه الخلعة مع أمر المشيخة وعندئذ ترك الشيخ جماعته. وقد اضطربت أمور صادق بك وتشتت اتباعه وفارقه أيضا جاسم الشاوي مع بعض اتباعه كما تخلى عنه شيوخ عفك وعرضوا طاعتهم على الحكومة وعندئذ اضطر صادق إلى الهروب حتى وصل الحويزه ومنها التجأ إلى عشيرة بني كعب وبعد حين عفا عنه داود. إما جاسم بك الشاوي فقد هرب في اتجاه الشمال وسار نحو اليزيديين في سنجار وهناك اتفق معهم على التمرد والعصيان فأرسل داود باشا قوة لتأديبهم فكانت الغلبة لهذه القوة التي فرقت شملهم وشتت جموعهم. لقد تميز عهد داود باشا بحركة إصلاحات لاسيما في المؤسسة العسكرية فقد احسن والي بغداد بقيمة التفوق والتنظيم في الأساليب الحربية _الأوربية فضلا عن تأثره بأصلاحات سيده السلطان محمود الثاني فشرع بتأسيس جيش نظامي مستخدما البريطانيين في تدريب قواته وبأشراف من الكولونيل تايلر الذي كان ممثلا جديدا لشركة الهند الشرقية المقيم في بغداد فكون الوحدات المنظمة و المدربة مزوده بالمدفعيه الحديثة والاسلحة الكثيرة. وقد كان داود باشا يبعث بانتظام في سنوات حكمه الأولى ما عليه من أموال إلى الباب العالي فكانت بذلك افضل من غيره من الولاة المماليك الذين لم يكونوا منذ ايام سليمان باشا الكبير ليبعثوا الا بالقليل منها غير ان هذا الانتظام في إرسال الأموال تعرض في السنوات الأخيرة من حكمه إلى التوقف والتأخير ثم إلى قطع إرسال هذه الأموال لانه كام مضطرا إلى ذلك فبرنامجه الاصلاحي الاقتصادي والعسكري وتهديدات إيران المتمردة والثورات العشائرية ومؤامرات المطالبين بالباشوية كل هذا أجبره على توفير المال اللازم لتحقيق إمكانية التحرك في جميع هذه ولكن هذا الامتناع في إرسال الاموال صار سببا لتوتر العلاقة بين داود والسلطان [1].

١_ايناس سعدي عبدالله، المصدر السابق، ص ٣٥٧_٣٥٩.

كانت لدى داود باشا قوتين عسكريتين مختلفتين عن بعضهما البعض قوة نظامية من الجنود الأتراك واخرى من المجندون من العشائر فالقوات التركية كانت تتمركز من الخرس الكرجي لداود باشا وعدده حوالي ١٧٠٠ رجل في سنة ١٨٣٠ وهناك الحرس الشخصي وايضا لديه ١٥٠٠ مشاة و٥٠٠ مدفعي و ٥٠٠ رماة أما المجندون فكانوا حوالي ٥٠٠٠رجل من بني عقيل تساهم في كثير من الأحيان الحملات الحكومية الكبرى .ويقول المؤرخ التركي ثابت افندي سنه ١٨٣٠ ان داود باشا كان يقود قوه مقاتلة تعدادها ١٢٥٠٠رجل [١].

وخلال الحرب ضد إيران ١٨٢٠_١٨٢٣ وقف الباشا وحده تقريباً ضد الجيوش الايرانية وحلفائها البابانين فأمدته الدولة بحوالي عشرة آلاف مقاتل فأستبقى نصف هذه القوة وبقيت في خدمته إلى نهاية حكمه وفضلا عن أن داود كان يتجه إلى أن يؤلف قواته من رجال يرتبطون به هو مباشرة لا بالعشيرة هذا إلى جانب استخدامه للعشائر العربية الموالية مثل الخزاعل وشمر الجربا .ولقد كانت الحرب الايرانية درسا لداود فقد واجه عدوا كبيرا وقدر قيمة النظم الحديثة في تشكيل الجيوش ولذلك استقدم دفو Devaux وكان له الفضل في انتصارات الإيرانيين على جيش بغداد سنة ١٨٢٠ واسند إليه أمر تدريب الجيش وفق النظم الحديثة .وكان المصدر الذي اعتاد المماليك أن يشتروا منه السلاح هو الهند البريطانية ولكن الانجليز كانوا يبيعون الأسلحة ويمسكون عن بيعها وفق اتجاهاتهم واطماعهم السياسية ولذلك اتبع داود خطة مزدوجة فأشترى مصنعا للبنادق من أوربا لا من الهند وجلب الفنيين لادارته وأخذ يلح في طلب الأسلحة والسفن مم الهند في نفس الوقت ،والواقع ان حاجته إلى الأسلحة والسفن من الهند كانت قوية وقد وقف الإنجليز في اصرار ضد رغباته المتكررة في ان يمدوه بالسلاح والذخائر وغرض الإنجليز واضح هو ابقاء العراق ضعيفا ليستطيعوا ان ينفذوا اغراضهم هناك وفي الخليج العربي ومع ان المقاومة الإنجليزية لهذا الاصلاح العسكري كانت عنيده في الفترة بين (١٨٢٦_١٨٢٩) فلم تحل هذه المقاومة دون تولي ضباط انجليز القيادة في جيش داود .على ان هذا الاتجاه نحو الاستعانة بالضباط الإنجليز جاء في أواخر ايام داود نظرا للتفاهم القوي الذي تم بين تايلور وداود حول انشاء خطوط المواصلات النهرية البخارية بين الهند واوربا عبر العراق فقد تولى اخو تايلور نفسه قيادة فرقة من الخيالة النظامية سنة ١٨٣٠ واكمل داود إصلاحه العسكري بان رصد لهذه القوات النظامية المرتبات التي تصرف بانتظام وأسس مصانع المنسوجات لتفي بحاجات الجيش [٢].

١_جون فريدريك وليامسون، قبيلة شمر العربية مكانتها وتاريخها السياسي (١٨٠٠_١٩٥٦)،ترجمة مير بصري ،ط١،دار الحكمة، لندن، ١٩٩٩،ص ص ٦٢_٦٦.

٢_عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق،ص ص ٣٢١_٣٢٢.

المبحث الثاني: الجانب الاقتصادي

وفي عهد المماليك لم يشهد العراق اصلاحات زراعية على نطاق واسع وكان ذلك نتيجة لاضطراب أمور العراق والفتن الداخلية المستعمرة فلم يشعر وآل بالاستقرار ليباشر تنفيذ برنامج اقتصادي سليم الأعداد فهذه الفتن كانت سببا في استنفاذ قوى العراق .واذا ما أراد حاكم أن يصلح جاء إصلاحه ارتجاليا سريع الأعداد بدائي التنفيذ دون أن تستغل فيه رؤوس أموال ذات إثر. ولم يشعر داود بالاستقرار النوعي الا بعد الحرب الايرانية وبعد إخماد لثورات القبائل العربية والمنتفق ١٨٢٦ ولذلك كان قيامه بمشروعات زراعية واسعة النطاق أمرا صعب التحقيق ومع ذلك فقد قام بمجهودات عظيمة اذا ما قورنت بمشكلات العراق، فقد قام بتطهير القنوات والترع المهملة وبذلك استطاع أن يوصل الحياة إلى أماكن قابلة بين بغداد والحلة فأنبت بها الزرع ،ونال هو من وراء ذلك زيادة لدخل الحكومة. ومن اهم مشروعاته في الصدد حفر نهر النيل الذي كان الحجاج ابن يوسف الثقفي قد شقه سنه ٨٢ه _٧٠٩م وهو يأخذ من الفرات قرب الحله. حشد داود الحفرة خمسة آلاف عامل حتى أتمه سنة (١٢٤٢ ه_١٨٢٦م) وكذلك كان مهتما باستخدام الات الري التي تسهل على الفلاح عمله فلما عرض عليه احد الإيرانيين آله لرفع المياه أمر بالتسهيلات اللازمة للمشروع. فلما تم بنجاح كأفا الوزير صاحب الفكرة وأطلق عليه جرخ يوسف نسبة الى يوسف بن داود. وكانت خطته في النهوض الاقتصادي بالعراق شاملة غير مقصورة على توفير مياه الري وزيادة مساحة الأرض المستغلة. فقد عمل على رفع المستوى الصناعي الذي كان قد انهار إلى الحضيض .وكان من الطبيعي أن تهدف خطته في هذا الشأن إلى استغلال خامات العراق الزراعية فأسس مصانع للمنسوجات القطنية والجوخ. وكان من الجوخ سلعة تتناقش على بيعها في العراق كل من بريطانيا وفرنسا. حقيقة كانت هذه الصناعات تخدم إلى حد كبير حاجات جيشه وتشكيلاته الجديدة وهذا أمر تتطلب حاجات الولاية في هذه الظروف وهي سد الحاجات السريعة للقوة العسكرية التي كونها الباشا المصلح دون النظر في أول الأمر إلى تنفيذ برنامج صناعي شعبي ولذلك نجد داود باشا يستقدم الفنيين من أوربا والأدوات اللازمة لبناء مصنع للبنادق وما ذلك الإتجاه في سياسة التصنيع الا نتيجة لأن كرسي الوزارة كان يهتز تحت قدميه لخشية داود باشا من نوايا السلطان ولتعدد الثورات الخطيرة في البلاد ولأنه وقف وحده تقريباً في الحرب ضد إيران والعراق عامر بالمعادن والخدمات اللازمة لكثير من الصناعات ولكن الجهل يحول دون استقلالها. وقد أشار جسني إلى اكتشاف مواد معدنية وخامات هامة للصناعة دون أن تستغل مثل النفط إلى جانب النحاس و الرصاص فكانت تلك المعادن محط انضار الاوربين[١].

١_عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق،ص ص ٢٨٥_٢٨٧.

وكان من المنتظر أن تكون تجارة العراق ضعيفة تبعا لضعف الزراعة ولكن العراق كفريق بين الشرق والغرب وكمركز عظيم لتوزيع واستهلاك المتاجر الأوربية والهندية، كان سببا في أن يستمر العراق على نوع من الازدهار الاقتصادي ويرجع الفضل إلى سليمان ابو ليلة ١٧٤٩_١٧٦١ في ارتقاء بغداد من مجرد مركز تجاري بسيط إلى سوق شرقية كبيرة ولذلك تقدمت التجارة في الربع الأول من القرن التاسع عشر تقدما كبيرا وأصبح يصل البصرة سنويا ست سفن تحمل العلم الإنجليزي بدلا من سفينتين. هذا ما عدا السفن العربية وذلك بفضل التسهيلات التي منحت للانجليز وللعمانين. وقد أسهمت منتجات العراق نفسه في نشاط التجارة فقد بلغت قيمة المصدر من منتجات العراق في العقد الثاني من القرن التاسع عشر حوالي ٣٥٠ الف قرش وكانت إمكانيات العراق الاقتصادية تسمح برفع هذه القيمة إلى أربعة أمثالها لو أن الحكومة العراقية اهتمت بوسائل تنمية الإنتاج [١].

ولقد زادت التجارة نشاطا في عهده وكان مقدرا لها أن تزداد نشاطا لو لم تدهمها كوارث سنة ١٨٣٠ .ولم تكن فكرة شق القنوات هي الأسلوب الوحيد الذي اتبعه لتنشيط هذه التجارة بل اهتم كل الاهتمام بأمن الطرق وتيسير المواصلات النهرية والبرية ومن ذلك انه ضرب عشيرة عفك لأنها عبثت بالملاحة النهرية وكلف بعض القبائل بالمحافظة على الملاحة في مناطق معينة وكان اهتمامه هذا كفيلا بزيادة دخل خزانته من هذه التجارة الوفيرة وزيادة الدخل الوطني أيضا، فقد كانت الرسوم على التجارة في بغداد تقدر بمليون قرش وفي البصرة كانت تقدر بمليون ونصف مليون. كانت كل منطقة او قرية او مدينة تمنح للملتزم يتكفل بجمع مقدار معين من الأموال منها وهو نظام وضع في القرن السادس عشر عندما عجز الولاة عن جمع الأموال بأنفسهم.

١_ عبد العزيز سليمان نوار،المصدر السابق، ص ٢٨٨_٢٩٣.

إما الضرائب في عهد داود فكانت على النحو التالي:

أ_ ضرائب شرعية:

١_الجزية

٢_العشر على الحاصلات الزراعية وفي بعض المراجع أنها كانت الخمس في البصرة.

٣_الزكاة.

٤_رسوم الجمارك.

٥_ضريبة المرور على البضائع.

٦_ضريبة على الحوانيت والخانات والمنازل.

٧_ضريبة على الأراضي المزروعة.

٨_أموال يقدمها حكام المدن .

ب_ ضرائب (طارئة) : يفرضها الباشا او الشيخ او المتسلم او مختار القرية إذا أراد أن يصلح شيئآ او كان في حاجة إلى الأموال[١].

١_عبد العزيز سليمان نوار، المصدر السابق،ص ٢٩٤.

المبحث الثالث: الجانب الثقافي

من كان يريد أن ينشأ دولة فلا بد من أن يفكر في إصلاحها و يسبغ العدل عليها ويقرب قلوب الناس لكي يلتفو حوله فقد كان داود عالما ذا فضل وأدب فأخذ يتقرب إلى الصوفية وأرباب الطرق فدفع لزعيم الصوفية الشيخ خالد النقشبندي ثلاثين ألف ليرة ذهبا عندما سمع انه مدين وقد كانت الطرق لها أهميتها وكيانها فأخذ المريدون يلهجون بالدعاء والثناء على داود باشا.

اعتنى داود باشا بعمارة بغداد وأخذ يعمر المساجد والجوامع وأمر بغرس الحدائق والبساتين ومن أشهر ما بناه الجامع المعروف بالمولى خانه وكان له مأذنتان ،وجامع حيدر خانة وجامع باب المعظم المسمى بجامع الازبك ومسجد السيف ولم يكتف بالبناء فأخذ يجدد بعضها مثل جامع السادة في الباب الشرقي وسوق المولى خانه الخان المتصل بباب الجسر المعروف بخان داود باشا، واعتنى داود باشا أيضا ببعض الاصلاحات العامة فأحتفر الأنهار التي عفت ودرست وفي مدة حكمه زادت موارد البلاد من مميزات داود باشا انه تفرغ وقتا من أوقاته للعلم وخاصة انه نشأ نشأة علمية وكان يحاول ان يوطد حكمه ويستقل بولايته كما استقل محمد علي باشا في مصر .أن داود تثقف على أيدي العلماء الكبار ومنهم صبغة الله الحيدري فقد اجازه في الاصوليين وتفسير البيضاوي . قد كثرت المدارس في عهده حتى انها بلغت ثمانية وعشرين معهدا كبيرا للتدريس وأخذ يستجلب المدرسين من أنحاء البلاد وجعل في كل معهدا مدرسا خاصا به .اعتنى داود بالمساجد كثيرآ ولاسيما الجامع الذي أنشأه وعدد فيه المدرسين والائمة والخدم ليؤثر من هذا الطريق في الناس وبذلك يكون المدرسون أداة للدعاية له بين الطلاب فينشرها الطلاب بين أهلهم وذويهم . أن من أهم المعاهد التي اعتنى بها داود باشا مدرسة داود باشا ومدرسة علي باشا والمدرسة العادلية ومدرسة الاعظمية حتى بلغت عدد هذه المدارس ثماني وعشرين مدرسة ثم بنى أثنى عشر معهدا بين الرباط ومرقد ولى وقد نبغ في عهده مدرسون كثيرون كالسيد عبد الله الالوسي، وعبد الرحمن الروزبهاني وتلميذ داود باشا محمد البزرنجي ومحمود الالوسي ومحمد سعيد السويدي وعثمان بن سند [1].

١_ يوسف عز الدين ، المصدر السابق،ص ص ٣٨_٤٠.

المبحث الرابع :نهاية حكم داود باشا ١٨٣١ وسقوط المماليك

كانت علاقة داود باشا مع السلطان محمود الثاني علاقة جيده حتى أن السلطان أهدى له عام ١٨٢٠ خمسة عشر مدفعا ولكن رغبة داود بالاستقلال عن الدولة العثمانية منعته عن تلبية مطالب السلطان محمود الثاني مما أدى إلى سعي السلطان عزل داود باشا عن الحكم.وفي عام ١٨٣٠ أرسل السلطان أحد مساعديه المدعو صادق افندي إلى داود باشا بعزله من الولاية .ولما وصل صادق افندي بغداد خرجت قوة لاستقباله لكنه ذهب إلى دار الضيافة. مما زاد في حنق صادق أفندي عدم عناية داود به العناية الكافية مما أدى إلى الجدل والنزاع الكلامي في شأن عزله و تسليمه الولاية حالا لمن يريده صادق سرا إلى أحد المماليك داود باشا. أشتدت الهواجس بداود إذ أن صادق أفندي لابد أن يفاوض شخصا آخر في هذا الأمر وقد يوافق ذلك الشخص ويشق البلاد شقين[١].

حاول صادق أفندي التعاون مع احد زعماء المماليك ويدعى سليمان اغا الميراخور وطلب منه قتل داود باشا باعتباره متمرد على السلطان ووعده بأنه سيوليه مكانه اذا ما قام بتلك المهمة، الا أن سليمان آغا أبلغ داود باشا بما عرضه عليه صادق أفندي وعلى أثر ذلك شاور داود باشا اتباعه في الإجراء المطلوب اتخاذه بحق صادق أفندي وتقرر قتله وتم ذلك وبعث داود برسالة إلى السلطان العثماني يبلغه بوفاة مبعوثه بسبب إصابته بمرض الكوليرا مما جعل السلطان يتذمر من المصير الذي حل بمبعوثه وقرر السيطرة على بغداد بالقوة [٢].

١_يوسف عز الدين، المصدر السابق،ص ص ٤٦_٤٧.

٢_جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ج١،ط١،مطبعة دار الكتب ،بيروت ،١٩٧١،ص ص ٢٩١_٢٩٢.

قرر السلطان محمود الثاني بعد معرفته بمقتل صادق افندي في ١٩ تشرين الاول ١٨٣٠ توجيه حملة عسكرية للقضاء على حكم المماليك في العراق و وقع اختياره لقيادة تلك الحملة على والي حلب علي رضا باشا اللاز[١].

لقد اخذ الطاعون يفتك بالناس فتكا ذريعا لا هوادة فيه ولا رحمة وأخذت إصابات الطاعون تزداد يوما بعد يوم كلما أزداد علي رضا باشا قربا من بغداد ولم يبقى مم عساكر داود وحاشيته غير ٤٦رجلا ولم تكن الطبيعة رحيمة بالعراق فقد أغرقت بغداد وأحيطت المدينة بالمياه وصعب على الناس الهروب ثم اخذت البيوت تتساقط على من بقى من الناس حتى قدرت البيوت المتهدمة بسبعة آلاف بيت .وقد أصبح داود عاجزا عن القيام والقعود فقد استولئ عليه الطاعون ورأى أحلامه تذوى بين يوم وليلة وأخذ يسمع بتقدم علي رضا باشا حتى لم يبق معه من يساعده الا أمرأة عجوز ويحصل طعامه من سماك كان يشفق عليه ومما زاد الأمر سوءا أحترق السراي وقضاء النيران على كنوز داود باشا واسلحته ومفروشاته. عاد بعض المماليك الفارين من الطاعون عندما خفت وطأته وانخفض الماء ومعهم بعض اعوان داود باشا لكي ينجدوا داود باشا ويمنعوا علي رضا باشا من دخول بغداد .حصنوا المدينة وبعثوا إلى الدولة عارضين عليها عشرة آلاف جنيه نظير بقاء داود باشا في الحكم ولم يكن علي رضا باشا ان يزيد من خراب المدينة لأنها ستكون عاصمته لذلك بقى خارج الاسوار فأخذ البغداديون يدافعون دفاع الأبطال عن بغداد وجدوا حوالي ٥٠٠ جندي لقتال الجيش الذي جاء به علي رضا وكانت المدافع تحصدهم حصدا .أما داود فدخل الضباط عليه بتواضع واحترام واخذوه معهم إلى خارج المدينة واستقبله علي رضا باشا بالاحترام الذي لم يقابل بمثله الملوك من قبل ثم ارسله الى الاستانة ومعه توصيه من علي رضا باشا كانت سببا في العفو عنه ولما قابله السلطان ولاه البوسنه إلى أن جاء السلطان عبد المجيد فولاه الحرم النبوي وتوفى في المدينة دعا علي رضا المماليك دعوه عامة فلبو

١-علي رضا باشا اللاز،قائد عسكري ورجل دولة عثماني ولد في طرابزون، تولى العديد من المناصب العسكرية والوظائف الإدارية في الدولة العثمانية، فقد عمل في شبابه موظفا في جمرك أزمير ومتسلما في مغنسيا وفي عام ١٨٨٢عمل كتخدا مع والي حلب وأصبح واليا على العديد من الولايات العثمانية ومنها حلب وبغداد وديار بكر وجده وتوفى في الشام عام ١٨٤٥

نداءه ولما اجتمعوا عنده دبر مكيده لهم إذ خرج الجلادون عليهم واخضبوا بدمائهم أقدامهم ولم يبق منهم باقية وبذلك انقرضت دولة المماليك التي حكمت حوالي القرن في العراق وقضى عليهم بنفس الطريقة التي قضي بها على محمد علي باشا على المماليك في مصر وأصبحت ولاية العراق تابعة مباشرة إلى الاستانة فانتصرت الاستانة على أعدائها واقواهم بأسا واشدهم مراسا[1].

١_يوسف عز الدين، المصدر السابق،ص ص ٤٨_٥٢.

الخاتمة

١_لقد كان داود باشا هو آخر ولاة المماليك الذين حكموا مدينة بغداد، ولد في مدينة تبليسي في جورجيا وبيع في بغداد مملوكا.

٢_ اعتنق الدين الإسلامي وتزوج من ابنة الوالي سليمان باشا وتدرج في أرقى المناصب في زمانه ثم أصبح واليا على بغداد بعد وفاة سليمان باشا.

٣_ان حكم داود باشا هو امتداد لحكم المماليك لولاية بغداد والذي بدأ منذ عام ١٧٤٩ وفي الوقت نفسه مثل نهاية حكمه عام ١٨٣١ نهاية لعهد المماليك.

٤_ أهتم داود باشا بتقوية الجيش وتدريبه على النظم الحديثة و اشترى داود باشا مصنعا للبنادق من أوربا وجلب الفنيين كما أسس مصانع المنسوجات لتفي بحاجات الجيش.

٥_على الرغم من إصلاحات داود باشا الاقتصادية والعسكرية الا أنه لم يجد حلا لكثير من المشاكل التي عانى منها سكان ولاية بغداد لاسيما مشكلة العشائر.

٦_اولى داود باشا اهتماما بالمساجد والمدارس سواء في بنائها او ترميمها وهذا يعود إلى الثقافة الدينية التي تمتع بها وتأثره برجال الدين الذين تلقى العلم على ايديهم فشهدت بغداد في عهده نهضة كبيرة وشاملة في انتشار العلم والعمارة الإسلامية.

٧_كان للثقافة التي تمتع بها داود باشا لن قرب إليه العلماء والادباء والمؤرخين والشعراء مما كان له الأثر في ان تستعيد بغداد في عهده مكانتها العلمية التي فقدتها منذ قرون خلت، ولهذا عدت مدة حكمه بداية لنهضة العراق الحديثة.

قائمة المصادر

الرسائل والاطاريح:

١_ علي طالب عبيد عاصي، الحلة في القرن الثامن عشر دراسة في الاحوال السياسية والإدارية والفكرية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية جامعة بابل، ٢٠٠٩.

٢_ عماد عبد السلام رؤوف، الحياة الاجتماعية في العراق ابان عهد المماليك ١٧٤٩_١٨٣١، أطروحة دكتوراه غير منشوره، جامعة القاهرة، ١٩٧٦.

الكتب:

١_ ايناس سعدي عبدالله، تاريخ العراق الحديث ١٢٥٨_١٩١٨ دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠١٤.

٢_احمد علب الصوفي، المماليك في العراق، مطابع الاتحادية، الموصل، ١٩٥٢.

٣_جعفر الخياط، صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ج١، ط١، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٧١.

٤_جون فريدريك وليامسون، قبيلة شمر العربية مكانتها وتاريخها السياسي ١٨٠٠_١٩٥٦،ترجمة مير بصري، ط١، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٩.

٥_سليمان فائق بك، تاريخ بغداد، ترجمة موسى كاظم نورس، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٢.

٦_ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٤٩.

٧_عثمان بن سند البصري، مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧١.

٨_عبد العزيز سليمان نوار، داود باشا والي بغداد، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.

٩_عباس العزاوي، تاريخ العراق بين الاحتلالين، ج٦،مطبعة بغداد، بغداد،١٩٥٤.

١٠_علي الوردي، لمحات اجتماعيه من تاريخ العراق الحديث، ج١، ط٢،دار الراشد، بيروت، ٢٠٠٥.

١١_عبد الرحمن السويدي، حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، ج١، مطبعة الزعيم، بغداد ،١٩٦٢.

١٢_كريم مطر حمزة، الحله في عهد المماليك ١٧٤٩_١٨٣١، مؤسسة ثائر العصامي، بغداد، ٢٠١٨.

١٣_يوسف عز الدين، داود باشا ونهاية المماليك في العراق، منشورات دار البصري، بغداد، ١٩٦٧.